

الفصل الحادي عشر

سريّة زيد بن حارثة ﷺ إلى حسَمَى (جذام)

جمادى الآخرة ٥٦ / أكتوبر (تشرين أول) ٦٢٧م / هاتور ٣٤٤ قبطني

المبحث الأول

عرض سريّة زيد بن حارثة ﷺ إلى حسَمَى (جذام)

التعريف بحسَمَى:

يقول د/ بريك: «حَسَمَى - بكسر الحاء المهملة، وسكون السين المهملة، وفتح الميم - مقصور على بناء فعلى، يجوز أن يكون أصله من الحسم، وهو المنع.

قال ابن سيده: حَسَمَى موضع باليمن، وقيل: قبيلة جذام.

وقال البكري: قال عنترة:

سيأتيكم عني وإن كنت نائياً دخان العلندي دون^(٢) بيتي مود

قصائد من قيل امرئ يحتديكم^(١) وأنتم بحسَمَى فارتلوا وتقلّدوا

يخاطب بني فزارة، فدلّ على أنّ حسَمَى من ديارهم، وفي رسم ومران: إنّ حسَمَى من الجزيرة في شعر ابن أحرر:

فلله من يسرى ونجران دونه إلى دير حسَمَى أو إلى دير ضمضم

قال: ودير «حسَمَى»، ودير ضمضم بالجزيرة، فدلّ هذا التفسير، ودلّ قول عنترة أنّ حسَمَى موضع آخر في غير ديار جذام.

وقال ابن السكيت: حسَمَى لجذام جبال وأرض بين أيلة، وجانب تيه بني إسرائيل الذي يلي أيلة وبين أرض بني عذرة من ظهر حرة نهباً، فذلك كله حسَمَى، قال كثير:

سيأتي أمير المؤمنين، ودونه جماهير حسَمَى قورها وحزونها^(٣)

وقال ابن الأعرابي: «إذا لم يذكر كثير غيقة فحسَمَى، وإذا ذكر غيقة فحسَمَاً»^(٤).

وذكر ابن دريد وغيره: «أنّ آخر ماء نضب من ماء الطوفان حسَمَى، ويُقال: إنّ الماء بقي بحسَمَى بعد نضوب ماء الطوفان ثمانين سنة، وبقيت منه بقية إلى اليوم فهو أخبث ماء، فهو من مياه جذام، وهو

(١) يحتديكم: يريد يطلبنكم. المصدر السابق.

(٢) العلندي: جبل لم يُر قط إلا والدخان خارج من رأسه. معجم ما استعجم: ٤٤٧/٢.

(٣) يعني: جبلها وسهاتها.

(٤) قال ابن حبيب: «حسَمَاً جبل يقع قرب ينبع». معجم البلدان ٢/ ٢٥٩.

الصحيح، وفيه أغار الهَيْدُ الصَّلْعِيُّ، وصلَّح بطن من جذام، على دحية الكلبي، وقد نزل واديًا من أوديته، يُقال له: شِيَار، وهو منصرف من عند قيصر، حين بعثه النَّبِيُّ  ، فكان ذلك سبب بعثه رسول الله   زيد بن حارثة   في سرية إلى حِسْمَى، فأصاب من جذام، وقتل الهيد بالفضافض (بفتح أوله وثانيه، بعدهما مثلها، على لفظ الجمع: أرض لجذام. معجم ما استعجم ٣/ ١٠٢٥) من ديارهم.

وفي حديث أبي هريرة  : «لتخرجنكم الروم منها كفرًا كفرًا إلى سُبَيْك (السُّبَيْك: الأرض الغليظة القليلة الخير، شبه الأرض في غلظها بسُبَيْك الدَّابة وهو طرف حافرها. القاموس المحيط، مادة (سنبك)، والنهاية: ١٩٤/٢) من الأرض، قيل: وما ذاك السُّبَيْك؟ قال: حِسْمَى جذام».

وفي الحديث: «بُشِّرْ رَكِيبَ السَّعَةِ بِقَطْعٍ مِنْ جَهَنَّمَ مِثْلَ قُورِ حِسْمَى».

قال القتيبي: وحسمى: بلد جذام.

وقال في الصحاح: «حِسْمَى أرض بالبادية غليظة لا خير فيها، تنزلها جذام، وفيها جبال شواحق ملس الجوانب، لا يكاد القتام (القتام: الغبار. القاموس، واللسان، مادة (قتم). قلت: والمقصود به هنا السحاب، أو الضباب، لأنه يكثر في الجبال المرتفعة) يفارقها».

وفي أخبار المتنبي وحكاية سيره من مصر إلى العراق قال: حسمى أرض طيبة تؤدي لبن النخلة من لينها، وتنبت جميع النبات، مملوءة جبالاً في كبد السماء متناوحة (التناوح: التقابل، ومتناوحة أي متقابلة. القاموس: تنح)، ملس الجوانب، إذا أراد الناظر النظر إلى قُلَّةٍ أحدها قلَّ عنقه حتَّى يراها بشدة، ومنها ما لا يقدر أحد أن يراه ولا يصعبه، ولا يكاد القتام يفارقها، ولهذا قال النابغة:

فأصبح عاقلاً بجبال حسمى دقاق التُّرب محترم القتام

قال ياقوت: «واختلف الناس في تفسيره ولم يعلموه، ويكون مسيرة ثلاثة أيام في يومين، يعرفها مَنْ رآها من حيث يراها؛ لأنَّها لا مثل لها في الدنيا، ومن جبال حِسْمَى يُعرف بـ «إرم» عظيم العلو، تزعم أهل البادية أنَّ فيه كروماً وصنوبراً، وأهل تبوك يرون جبل حسمى في غربيهم وشرقيهم، وأرض حسمى بينها وبين وادي القرى ليلتان.

قال ابن سعد: هي وراء وادي القرى.

وقال محمد مرداد: «هي موضع وراء وادي القرى، متصل بالحجر غماماً من طريق الإبل، ولا يزال موجوداً للآن ومعروفاً، ومن تسلق أعلى نخلة في تبوك يرى جبل حسمى، وكذلك المتسلق لأعلى شجرة في العُلا أو المتسئم لأعلى ذروة في جبال وادي القرى يرى حسمى، وقد مررنا به في رحلتنا ولكننا لم نستطع تسلقه مع أننا أقمنا بـ «حقل»، وأيلة أياماً عديدة، والسبب في ذلك راجع إلى كثرة العجاج وشدة

الريح، إذ كلما عزمنا على تسنمه تشتد بنا الريح فنهبط قسراً، وقد ذكر حسنى أكثر من أربعين مؤرخاً ورخالة، ويزعم البدو الرُّحَل وأهل الماشية هناك أن بقمته وحشرجه مياه متعفنة لا يقرب منها أحد». [ينظر: الصحاح، ولسان العرب، والقاموس، مادة (حسم). والبكري: معجم ٢/٤٤٦-٤٤٨، والحموي: معجم ٢/٢٥٨-٢٥٩، ومداين صالح - محمد عبد الحميد مرداد ٤٨-٤٩]. غزوة مؤتة ليريك ٧٣-٧٦.

تاريخ السرية:

أرخ لها الواقدي، وابن سعد بأنها كانت في جمادى الآخرة سنة ست من الهجرة، وقطع به اليعمرى، وقال به المقرئى، والشامى، وذكرها ابن خياط في سراياه ﷺ أنها كانت سنة سبع. [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشبالية ليريك ٨٠].

سبب السرية:

أجمع أهل المغازي على أن السبب الذي هاج هذه السرية إلى جذام هو ذلك الاعتداء السافر الذي تعرّض له سفير النبي ﷺ إلى هرقل وحامل كتابه إليه دحية بن خليفة الكلبي ﷺ، بينما كان مقبلاً من عند هرقل الذي أجازه بهال وكساه.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ مِنْ حَدِيثِهَا كَمَا حَدَّثَنِي مَنْ لَا أَتَمُّ عَنْ رِجَالٍ مِنْ جُذَامَ كَانُوا عُلَمَاءَ بَهَا، إِنَّ رِفَاعَةَ بْنَ زَيْدِ الْجَذَامِيِّ، لَمَّا قَدِمَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَكْتَابِهِ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَاسْتَجَابُوا لَهُ، لَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَدِمَ دِحْيَةُ بْنُ خَلِيفَةَ الْكَلْبِيِّ مِنْ عِنْدَ قَيْصَرَ صَاحِبِ الرُّومِ، حِينَ بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِ وَمَعَهُ تِجَارَةٌ لَهُ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِوَادٍ مِنْ أَوْدِيَّتِهِمْ يُقَالُ لَهُ شَنَارٌ، أَغَارَ عَلَى دِحْيَةَ بْنِ خَلِيفَةَ الْهَنْدِ بْنِ عُوصِ وَابْنَةِ عُوصِ بْنِ الْهَنْدِ الصُّلَعِيَّانِ، وَالضُّلَيْعِ: بَطْنٌ مِنْ جُذَامَ، فَأَصَابَا كُلَّ شَيْءٍ كَانَ مَعَهُ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/٦١٢].

وقال الواقدي: حَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَقْبَلَ دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ ﷺ مِنْ عِنْدِ قَيْصَرَ، فَدَاجَرَ دِحْيَةَ بِهَالٍ وَكَسَاهُ كَسَى، فَأَقْبَلَ حَتَّى كَانَ بِحِسْمَى، فَلَقِيَهُ نَاسٌ مِنْ جُذَامَ فَقَطَعُوا عَلَيْهِ الطَّرِيقَ وَأَصَابُوا كُلَّ شَيْءٍ مَعَهُ، فَلَمْ يَصِلْ إِلَى الْمَدِينَةِ إِلَّا بِسَمَلٍ (الخلق من الثياب)، فَلَمْ يَدْخُلْ بَيْتَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى بَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَقَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ هَذَا؟» فَقَالَ: دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ، قَالَ: «ادْخُلْ»، فَدَخَلَ، فَاسْتَجَبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَمَّا كَانَ مِنْ هِرْقَلٍ، حَتَّى أَتَى عَلَى آخِرِ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْبَلْتُ مِنْ عِنْدِهِ حَتَّى كُنْتُ بِحِسْمَى فَأَغَارَ عَلَيَّ قَوْمٌ مِنْ جُذَامَ، فَمَا تَرَكُوا مَعِيَ شَيْئًا حَتَّى أَقْبَلْتُ بِسَمَلِي، هَذَا الثَّوبُ. [المغازي للواقدي ٢/٥٥٥-٥٥٦].

فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ ﷺ إِلَى حِسْمَى. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/٨٤].

«وهي حملة عسكرية تأديبية قام بها إلى منطقة (حسمى) خلف وادي القرى زيد بن حارثة ﷺ لتأديب قبيلة جذام (بضم أوله) قبيلة قحطانية عظيمة وهي من كهلان، كانوا من العناصر اليمنية التي هاجرت من مأرب بعد انهدام السد الواقعة ديارها قرب تلك المنطقة.

وسبب هذه الحملة العسكرية التأديبية أن النبي ﷺ كان في تلك السنة قد أرسل دحية بن خليفة الكلبي ﷺ برسالة إلى الملك قيصر يدعو فيه إلى الإسلام.

فأكرم الملك قيصر دحية الكلبي ﷺ وكساه وأجازه، فقبل دحية من الشام عائدًا إلى المدينة، إلا أنه لما وصل إلى منطقة (حسمى) على الحدود الشمالية الغربية لجزيرة العرب هاجمه الهنيد (بضم الهاء) ابن عارض وابنه عارض في أناس من جذام فقطعوا عليه الطريق فسلبوه كل ما معه، ولم يتركوا عليه إلا ثوبًا رثًا خَلَقًا.

غير أن نفرًا من بني الضُبيب (من قبيلة جذام نفسها عن أسلموا) لما بلغهم ما فعل الهنيد وابنه برسول رسول الله ﷺ دحية الكلبي نفروا إليها واستعادوا منها ومن معها (بالقوة) كل ما أخذوه من دحية الكلبي ﷺ وأعادوه إليه.

فواصل دحية ﷺ سيرة حتى وصل المدينة، وهنا أخبر النبي ﷺ بما فعل به الهنيد بن عارض وعصابته من قطاع الطرق.

فقرر النبي ﷺ إرسال حملة عسكرية كبيرة قوامها (خمسمائة رجل) لتجوس خلال ديار المعتدين على دحية الكلبي ﷺ، وتغير عليهم لتؤديهم وتجعلهم عبدة لمن اعتبر. [صلح الحديبية لباشمیل ٥٠-٥٢].

استنقاذ دحية ﷺ ومتاعه من القوم:

قال الطبراني: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ دَاوُدَ التُّوزِيُّ، ثنا الْحُسَيْنُ بْنُ حَمَّادِ الْبَحْلِيُّ سَجَّادَهُ، ثنا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ الْأُمَوِيُّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مَازِنٍ، عَنْ نَعِجَةَ بْنِ زَيْدِ الْجُدَامِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: وَقَدْ رَفَاعَةُ بْنُ زَيْدِ الْجُدَامِيِّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا فِيهِ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ لِرَفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ، إِنِّي بَعَثْتُهُ إِلَى قَوْمِهِ عَامَّةً وَمَنْ دَخَلَ فِيهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، فَمَنْ آمَنَ فِيهِ حِزْبُ اللَّهِ وَفِي حِزْبِ رَسُولِهِ ﷺ، وَمَنْ أَذْبَرَ فَلَهُ أَمَانٌ شَهْرَيْنِ»، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى قَوْمِهِ أَجَابُوهُ، ثُمَّ سَارَ حَتَّى نَزَلَ الْحَرَّةَ، حَرَّةَ الرَّجْلَاءِ (الصلبة الشديدة. وقال غيره: هي التي أعلاها أسود وأسفلها أبيض، والرجلاء الصلبة الخشنة لا تعمل فيها خيل ولا إبل ولا يسلكها إلا راجل، وهو علم حرّة في ديار بني القين بن جسر، بين المدينة والشام. الحموي: معجم: ٢/ ٢٤٦، ٣/ ٢٨، والبلادي: معجم: ٩٧. غزوة مؤتة لبريك ٨٥)، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَقْبَلَ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ مِنْ عِنْدِ قُرَيْظَةَ حِينَ بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِوَادٍ مِنْ أَوْدِيَّتِهِمْ، يُقَالُ لَهُ: شِتْنَانٌ وَمَعَهُ تِجَارَةٌ لَهُ أَغَارَ عَلَيْهِ الْهَنْيْدُ بْنُ عُوَيْصٍ، وَأَبُوهُ الْعُوَيْصُ الضُّبَعِيُّ بَطْنٌ مِنْ جَذَامٍ وَأَصَابُوا كُلَّ

شَيْءٍ مَعَهُ، ثُمَّ إِنَّ نَفَرًا مِنْ قَوْمِ رِفَاعَةَ نَفَرُوا إِلَيْهِ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ فِيمَنْ أَقْبَلَ النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي جِعَالٍ حَتَّى لَقَوْهُمْ فَأَقْتَتَلُوا، وَرَمَى قُرَّةُ بْنُ أَشْقَرِ الضُّلَيْعِيُّ النُّعْمَانَ بْنَ أَبِي جِعَالٍ بِحَجَرٍ فَأَصَابَ كَعْبَهُ وَدَمَاهُ، وَقَالَ: أَنَا ابْنُ أَثَالَةَ، ثُمَّ رَمَاهُ النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي جِعَالٍ بِسَهْمٍ فَأَصَابَ رُكْبَتَهُ وَقَالَ: أَنَا ابْنُ إِقَالَةَ، وَقَدْ كَانَ حَسَّانُ بْنُ مِلَّةٍ الضُّبِّيُّ صَحْبَ مَعَهُ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ قَبْلَ ذَلِكَ فَعَلِمَهُ أُمُّ الْكِتَابِ، وَاسْتَفْذُوا مَا فِي أَيْدِيهِمْ فَرَدُّوهُ عَلَى دِحْيَةَ، ثُمَّ إِنَّ دِحْيَةَ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ خَبَرَهُمْ، وَاسْتَسْقَاهُ دَمَ الْهَيْدِ وَأَبْيَهُ عُوَيْصٍ وَذَلِكَ الَّذِي هَاجَ زَيْدٌ وَجُذَامٌ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ ﷺ وَبَعَثَ مَعَهُ جَيْشًا، وَقَدْ تَوَجَّهَتْ غَطَفَانُ وَجُذَامٌ وَوَأَثَلٌ، وَمَنْ كَانَ مِنْ سَلَمَانَ، وَسَعْدُ بْنُ هُذَيْلٍ حِينَ جَاءَهُمْ رِفَاعَةُ بِكِتَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَتَرَلَّ الْحَرَّةَ حَرَّةَ الرَّجُلَاءِ وَرِفَاعَةُ بِكُرَاعِ الْغَيْمِ وَمَعَهُ فَارِسٌ مِنْ بَنِي الضُّبَيْبِ، وَسَائِرُ بَنِي الضُّبَيْبِ بِوَادِي مَدَارِقَ مِنْ نَاحِيَةِ الْحَرَّةِ.

[مجمع الزوائد ٥/ ٥٥٩-٥٦٠ في الجهاد (٩٥٩٢)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٢٠/ ٣٤٠-٣٤١ رقم ٨٠١] متصلًا هكذا ومنقطعًا مختصرًا عن ابن إسحاق لم يجاوزهم، وفي المتصل جماعة لم أعرفهم وإسنادهما إلى ابن إسحاق جيداً].

وقال الواقدي: وَقَدْ كَانَ رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ الْجُدَامِيُّ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَفْدَا، فَأَجَارَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَقَامَ بِالْمَدِينَةِ، ثُمَّ سَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَكْتُبَ مَعَهُ كِتَابًا، فَكُتِبَ مَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، لِرِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ إِلَى قَوْمِهِ عَامَّةً وَمَنْ دَخَلَ مَعَهُمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، فَمَنْ أَقْبَلَ مِنْهُمْ فَهُوَ مِنْ حِزْبِ اللَّهِ وَحِزْبِ رَسُولِهِ، وَمَنْ ارْتَدَّ فَلَهُ أَمَانٌ شَهْرَيْنِ».

فَلَمَّا قَدِمَ رِفَاعَةُ عَلَى قَوْمِهِ بِكِتَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَرَأَهُ عَلَيْهِمْ فَأَجَابُوهُ وَأَسْرَعُوا، وَنَفَذُوا إِلَى مُصَابٍ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ فَوَجَدُوا أَصْحَابَهُ قَدْ نَفَرُوا، [المغازي للواقدي ٢/ ٥٥٧].

وقال الواقدي: فَحَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ مُحَمَّدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ شَيْخًا مِنْ سَعْدِ هُذَيْمٍ كَانَ قَدِيمًا يُخْبِرُ عَنْ أَبِيهِ يَقُولُ: إِنَّ دِحْيَةَ لَهَا أَصِيبٌ - أَصَابَهُ الْهَيْدُ بْنُ عَارِضٍ وَابْنُهُ عَارِضُ بْنُ الْهَيْدِ، وَكَانَا وَاللَّهِ نَكِيدَيْنِ مَشُؤُومَيْنِ فَلَمْ يُبْقُوا مَعَهُ شَيْئًا، فَسَمِعَ بِذَلِكَ نَفَرٌ مِنْ بَنِي الضُّبَيْبِ فَنَفَرُوا إِلَى الْهَيْدِ وَابْنِهِ، فَكَانَ فِيمَنْ نَفَرَ مِنْهُمْ النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي جِعَالٍ فِي عَشْرَةِ نَفَرٍ وَكَانَ نُعْمَانُ رَجُلُ الْوَادِي ذَا الْجِلْدِ وَالرِّمَامِيَّةِ، فَارْتَمَى النُّعْمَانُ وَقُرَّةُ بْنُ أَبِي أَصْفَرِ الضُّلَيْعِيِّ، فَرَمَاهُ قُرَّةُ فَأَصَابَ كَعْبَهُ فَأَقْعَدَهُ إِلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ انْتَهَصَ النُّعْمَانُ فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ عَرِيضِ السَّرْوَةِ (السهم العريض النصل)، فَقَالَ: خُذْهَا مِنَ الْفَتَى! فَحَلَّ السَّهْمُ فِي رُكْبَتِهِ فَشَنَجَهُ وَقَعَدَ، فَخَلَّصُوا لِدِحْيَةَ مَتَاعَهُ، فَارْجَعَ بِهِ سَالِمًا إِلَى الْمَدِينَةِ.

قَالَ مُوسَى: فَسَمِعْتُ شَيْخًا آخَرَ يَقُولُ إِنَّمَا خَلَّصَ مَتَاعَ دِحْيَةَ رَجُلٌ كَانَ صَحْبَهُ مِنْ قُضَاعَةَ، هُوَ الَّذِي كَانَ اسْتَفْذَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ أُخِذَ مِنْهُ رَدَّهُ عَلَى دِحْيَةَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٥٦-٥٥٧].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ (أَي مَا فَعَلَهُ الْقَوْمُ بِدِحْيَةَ ﷺ) قَوْمًا مِنْ الضُّبَيْبِ رَهْطُ رِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ مِمَّنْ كَانَ أَسْلَمَ وَأَجَابَ، فَنَفَرُوا إِلَى الْهَيْدِ وَابْنِهِ، فِيهِمْ مِنْ بَنِي الضُّبَيْبِ النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي جِعَالٍ، حَتَّى لَقَوْهُمْ،

فَافْتَتَلُوا، وَأَنْتَمَى يَوْمَئِذٍ قُرَّةُ بْنُ أَشَقَرٍ الضَّفَاوِيُّ ثُمَّ الضَّلْعِيُّ، فَقَالَ: أَنَا ابْنُ لُبْنَى، وَرَمَى النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي جَعَالٍ بِسَهْمٍ فَأَصَابَ رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ حِينَ أَصَابَهُ: خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ لُبْنَى، وَكَانَتْ لَهُ أُمُّ تَدْعَى لُبْنَى، وَقَدْ كَانَ حَسَّانُ بْنُ مَلَّةٍ الضُّبَيْبِيُّ قَدْ صَحِبَ دَحِيَّةَ بْنَ خَلِيفَةَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَعَلَّمَهُ أُمُّ الْكِتَابِ.
قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ قُرَّةُ بْنُ أَشَقَرٍ الضَّفَارِيُّ، وَحَيَّانُ بْنُ مَلَّةٍ. [السيرة لابن هشام ٦١٢/٢ - ٦١٣].

تحرك زيد ﷺ إلى جذام:

يقول أبو بشميل: «وقد أعطى النبي ﷺ قيادة هذه الحملة التأديبية لمولاه زيد بن حارثة ﷺ، فتحرك زيد ﷺ برجال هذه الحملة نحو الشمال، ومعهم دحية الكلبي ﷺ نفسه. ولكي لا يعلم الأعداء بخبر هذه الحملة صار القائد زيد ﷺ يسير الليل ويكمن النهار، وكان دليله من بني عذرة (قبيلة عظيمة من قضاة القحطانيين). وما زال زيد ﷺ يسير بحملته حتى باغت القوم وأغار عليهم مع (عماية الصباح)، وأحاط رجال حملته بهم من كل جانب فقتلوا منهم عدداً غير قليل من بينهم الهنيد وابنه عارض. ثم استولى زيد ﷺ ورجاله على ماشيه قوم الهنيد ونعمهم ونسائهم وصبيانهم. فأخذوا من النعم ألف بعير ومن الشاة خمسة آلاف شاة، ومن السبي مائة من النساء والصبيان.

[صلح الحديبية لباشميل ٥٢].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي مَنْ لَا أَتَمُّ عَنْ رِجَالٍ مِنْ جُذَامَ، قَالَ: فَاسْتَفْتَلُوا مَا كَانَ فِي يَدِ الْهَنْدِ وَابْنِهِ، فَرَدُّوهُ عَلَى دَحِيَّةَ ﷺ، فَخَرَجَ دَحِيَّةٌ حَتَّى قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ خَبْرَهُ، وَاسْتَسْقَاهُ دَمَ الْهَنْدِ وَابْنِهِ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ ﷺ، وَذَلِكَ الَّذِي هَاجَ غَزْوَةَ زَيْدِ جُذَامَ، وَبَعَثَ مَعَهُ جَيْشًا، وَقَدْ وَجَّهَتْ عَطْفَانُ مِنْ جُذَامَ وَوَأَثَلُ وَمَنْ كَانَ مِنْ سَلَامَانَ وَسَعْدُ بْنُ هُذَيْمٍ، حِينَ جَاءَهُمْ رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى نَزَلُوا الْحَرَّةَ؛ حَرَّةَ الرَّجُلَاءِ، وَرِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ بِكَرَاعِ رَبَّةَ (بالراء وتشديد الباء - بلفظ ربَّة البيت أو ربَّة المال، أي: صاحبتِه، في ديار جذام. والكراع هو: الجانب المستطيل من الحرَّة. ينظر: الحموي: معجم ٤٤٣/٤، وابن الأثير: نهاية ١٥/٤. غزوة مؤتة لبريك ٩٠) لَمْ يَعْلَمُوا، وَمَعَهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي الضُّبَيْبِ وَسَائِرُ بَنِي الضُّبَيْبِ بِوَادِي مَدَانٍ، مِنْ نَاحِيَةِ الْحَرَّةِ، مِمَّا يَسِيلُ مُشْرِقًا، وَأَقْبَلَ جَيْشُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ مِنْ نَاحِيَةِ الْأَوَّلَاجِ، فَأَغَارَ بِالْمَاقِصِ مِنْ قِبَلِ الْحَرَّةِ، فَجَمَعُوا مَا وَجَدُوا مِنْ مَالٍ أَوْ نَاسٍ، وَقَتَلُوا الْهَنْدَ وَابْنَهُ وَرَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي الْأَخْنَفِ - قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: مِنْ بَنِي الْأَخْنَفِ - وَرَجُلًا مِنْ بَنِي الْحَصِيبِ. [السيرة النبوية لابن هشام ٦١٣/٢].

قال الواقدي: ثُمَّ إِنَّ دَحِيَّةَ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَاسْتَسْعَى النَّبِيُّ ﷺ دَمَ الْهَنْدِ وَابْنِهِ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمَسِيرِ، فَخَرَجَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﷺ مَعَهُ. [المغازي للواقدي ٥٥٧/٢].

وقال الواقدي: وَقَدِمَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﷺ خِلَافَهُمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَبَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي خَمْسَةِ رَجُلٍ وَرَدَّ مَعَهُ دَحِيَّةَ الْكَلْبِيِّ ﷺ، وَكَانَ زَيْدٌ يَسِيرُ اللَّيْلَ وَيَكْمُنُ النَّهَارَ، وَمَعَهُ دَلِيلٌ مِنْ بَنِي عَذْرَةَ.

وَقَدْ اجْتَمَعَتْ غَطَفَانُ كُلُّهُمَا وَوَأَيْلٌ وَمَنْ كَانَ مِنْ سَلَامَاتٍ وَبَهْرَاءَ حِينَ جَاءَ رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ بِكِتَابِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى نَزَلُوا - الرِّجَالُ وَرِفَاعَةُ - بِكَرَاعٍ رُؤْيَةٍ (موضع في ديار بني مازن. معجم ما استعجم ص ٣٤٢، ٣٨٨) لَمْ يَعْلَمَ.

وَأَقْبَلَ الدَّلِيلُ الْعُدْرِيُّ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﷺ حَتَّى هَجَمَ بِهِمْ، فَأَعَارَوْا مَعَ الصُّبْحِ عَلَى الْهَيْدِ وَابْنِهِ وَمَنْ كَانَ فِي مُحَلَّتِهِمْ، فَأَصَابُوا مَا وَجَدُوا، وَقَتَلُوا فِيهِمْ فَأَوْجَعُوا (أي: أكثروا فيهم)، وَقَتَلُوا الْهَيْدَ وَابْنَهُ، وَأَعَارَوْا عَلَى مَا شِئْتَهُمْ وَنَعَمْتَهُمْ وَنِسَائِهِمْ، فَأَخَذُوا مِنَ النِّعَمِ أَلْفَ بَعِيرٍ، وَمِنْ الشَّاءِ خَمْسَةَ آلَافٍ شَاةٍ، وَمِنْ السَّيِّ مِائَةً مِنَ النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ.

وَكَانَ الدَّلِيلُ إِنَّمَا جَاءَ بِهِمْ مِنْ قَبْلِ الْأَوَّلِاجِ (جمع ولجة، وهي معطوف الوادي. القاموس المحيط ٢/٥٥٧-٥٥٨). [المغازي للواقدي ٢/٥٥٧-٥٥٨].

احتجاج بني الضبيب لدى القائد زيد ﷺ:

ولما سمع بنو الضبيب (وهم مسلمون من جذام نفسها) لما سمعوا بما صنع زيد ورجاله يقومهم من جذام جاء أحد زعمائهم إلى قائد الحملة زيد ﷺ محتجاً بأنهم مسلمون وأنهم (أي بني الضبيب) هم الذين استرجعوا (عنوة) من الهنيد وجماعته كل ما سلبوا من دحيه الكلبي ﷺ وأعادوه إليه، فطلب زيد ﷺ من هذا الزعيم أن يقرأ الفاتحة ليتأكدوا من إسلامه فقرأها، ولكن يظهر أن قائد الحملة زيد ﷺ قرر ألا يعيد إلى القوم ما غنم منهم وما أسر من رجالهم ونسائهم وصبيانهم، فواصل سيره بالسبي والغنائم نحو المدينة جنوباً.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي حَدِيثِهِ: فَلَمَّا سَمِعْتُ بِذَلِكَ بَنُو الضَّبِيبِ وَالْجَيْشُ بِفَيْفَاءَ مَدَانَ (الفيف: المفازة التي لا ماء فيها من الاستواء والسعة، فإذا أثت فهي الفيفاء. والمدان: وادٍ في بلاد قضاة بناحية حرة الرجاء يسيل مشرقاً من الحرة). (الحموي: معجم البلدان ٤/٢٨٥، ٥/٧٤). غزوة مؤتة لبريك (٨٨) رَكِبَ نَفَرٌ مِنْهُمْ، وَكَانَ فِيهِمْ رَكِبٌ مَعَهُمْ حَسَّانُ بْنُ مِلَّةٍ، عَلَى فَرَسٍ لِسُوَيْدِ بْنِ زَيْدٍ يُقَالُ لَهَا: الْعَجَاجَةُ، وَأُتِفَ بْنُ مِلَّةٍ عَلَى فَرَسٍ لِمِلَّةٍ يُقَالُ لَهَا: رِغَالٌ، وَأَبُو زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو عَلَى فَرَسٍ يُقَالُ لَهَا: شَمِيرٌ، فَانْطَلَقُوا حَتَّى إِذَا دَنَوْا مِنَ الْجَيْشِ قَالَ أَبُو زَيْدٍ وَحَسَّانُ لِأُتِفَ بْنِ مِلَّةٍ: كُفَّ عَنَّا وَانْصَرَفْ فَإِنَّا نَخْشَى لِسَانَكَ، فَوَقَفَ عَنْهَا، فَلَمْ يَبْعُدَا مِنْهُ حَتَّى جَعَلَتْ فَرَسُهُ تَبْحَثُ بِبَدَنِهَا وَتَوَلَّى، فَقَالَ: لَا نَأْضُنُّ بِالرَّجُلَيْنِ مِنْكَ بِالْفَرَسَيْنِ، فَأَرْخَى لَهَا، حَتَّى أَذْرَكَهُمَا، فَقَالَ لَهُ: أَمَّا إِذَا فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ فَكُفَّ عَنَّا لِسَانَكَ، وَلَا تَشَأْمُنَا الْيَوْمَ، فَتَوَاصَوْا أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ مِنْهُمْ إِلَّا حَسَّانُ بْنُ مِلَّةٍ، وَكَانَتْ بَيْنَهُمْ كَلِمَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَدْ عَرَفَهَا بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، إِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَضْرِبَ بِسَيْفِهِ قَالَ بُورِي أَوْ ثُورِي، فَلَمَّا بَرَزُوا عَلَى الْجَيْشِ أَقْبَلَ الْقَوْمُ يَتَدَرَّوْنَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ حَسَّانُ: إِنَّا قَوْمٌ مُسْلِمُونَ، وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ لَقِيََهُمْ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ أَدْهَمَ، فَأَقْبَلَ يَسُوقُهُمْ، فَقَالَ أُتِفَ: بُورِي، فَقَالَ حَسَّانُ مَهْلًا، فَلَمَّا وَقَفُوا عَلَى زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ قَالَ حَسَّانُ: إِنَّا قَوْمٌ مُسْلِمُونَ، فَقَالَ لَهُ زَيْدٌ ﷺ: فَاقْرَءُوا أَمَّ الْكِتَابِ، فَقَرَأَهَا حَسَّانُ ﷺ، فَقَالَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﷺ: نَادُوا فِي الْجَيْشِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَيْنَا ثَغْرَةَ الْقَوْمِ (ناحياتهم التي يحمونها) الَّتِي جَاؤُوا مِنْهَا إِلَّا مَنْ خَرَّ (نقض العهد). [السيرة النبوية لابن هشام ٢/٦١٣-٦١٤].

وقال الواقدي: فلما سمعت بذلك الضييب بما صنع زيد بن حارثة ﷺ ركبوا، فكان فيمن ركب حبان بن ملة وابنه، فدنوا من الجيش وتواصوا لا يتكلم أحد إلا حبان بن ملة، وكانت بينهم علامة إذا أراد أحدهم أن يضرب بسيفه قال: «قودي»، فلما طلعوا على العسكر طلعوا على الدهم من السبي والنعم والنساء والأسارى أقبلوا جميعاً، والذي يتكلم حبان بن ملة يقول: إنا قوم مسلمون، وكان أول من لقيهم رجل على فرس، عارض رُحمة، فأقبل يسوقهم، فقال رجل منهم: قودي! فقال حبان: مهلاً! فلما وقفوا على زيد بن حارثة ﷺ قال له حبان: إنا قوم مسلمون، قال له زيد: اقرأ أم الكتاب، وكان زيد إنما يمتحن أحدهم بأمر الكتاب لا يزيد، فقرأ حبان، فقال له زيد: نادوا في الجيش «إنه قد حرم علينا ما أخذناه منهم بقراءة أم الكتاب». [المغازي للواقدي ٢/٥٥٨].

زيد بن رفاعه يحتج لدى الرسول ﷺ

غير أن أحد زعماء قبيلة (جذام) وهو (زيد بن رفاعه الجذامي) أسرع في نفر من قومه إلى المدينة لمقابلة رسول الله ﷺ.

ولدى مقابلته ﷺ احتج على ما فعل زيد بن حارثة ﷺ في غارته على مناطق (حسمى) قائلاً: يا رسول الله لا تحرم علينا حلالاً، ولا تحل لنا حراماً، ثم دفع إليه ﷺ كتابه الذي كان قد كتبه له ولقومه ليالي قدومه عليهم عندما أسلموا.

الأمر بإعادة الغنائم والسبي:

وهنا قرر سيد من أوفى بالعهد على وجه الأرض ﷺ، قرر ﷺ أن يعيد إلى سادات (جذام) الوافدين عليه المحتجين لديه، قرر أن يعيد إليهم كل ما غنمته وسلبته حملته العسكرية التي قادها ابن حارثة ﷺ. ولم يكتف بهذا ﷺ بل بحث (مع وفد جذام) موضوع القتلى منهم الذي صرعوا بسيفوف رجال حملة زيد بن حارثة ﷺ قائلاً: (كيف أصنع بالقتلى؟؟)

فقال له أحد سادات جذام المشكل منهم الوفد وهو (أبو زيد بن عمرو): أطلق لنا يا رسول الله من كان حيّاً، ومن قتل فهو تحت قدمي، هاتين. فقال رسول الله ﷺ: صدق أبو زيد.

ثم استدعى ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ، وأمره بأن يكون مبعوثه الخاص إلى قائد الحملة زيد بن حارثة ﷺ ليلغمه أمره ﷺ بأن يرد على القوم كل ما أخذ منهم في غارته من أموال وسبايا وأسرى، وكانت شيئاً عظيماً كما تقدم.

فقال علي: يا رسول الله إن زيداً لا يطيعني، فقال ﷺ: خذ سيفي هذا (أي كعلامة).

فانطلقت علي ﷺ ومعه زيد بن رفاعه ﷺ وباقي أعضاء الوفد الجذامي نحو الشمال، ليلغ القائد زيداً ﷺ أمر رسول ﷺ، فلقني (وهو في طريقه) رافع بن مكيث الجهني ﷺ (هو رافع بن مكيث) بفتح أوله وكسر

ثانيه) الجهني، قال ابن حجر في الإصابة شهد بيعة الرضوان، وكان يوم فتح مكة يحمل لواء جهينة، استعمله النبي ﷺ على صدقات قومه، شهد الحامية في الشام مع الخليفة عمر (رضي الله عنه) على ناقة من إبل القوم، أرسله القائد زيد ﷺ بشيرًا بالنصر، فأخذ الناقة منه وردّها على القوم، وأردف البشير خلفه، ثم واصل سيره حتى لقي القائد زيدًا ﷺ وحملته العسكرية ومعهم تلك الغنائم العظيمة في منطقة الفحلتين مكان بين المدينة وذي المروة (قرية بوادي القرى)، وهناك أبلغه أمر رسول الله ﷺ بأن يرد على القوم كل ما أخذ منهم، وروي أن القائد زيد ﷺ قال لعلي (رضي الله عنه): ما علامة ذلك؟؟ فقال: هذا سيفه (رضي الله عنه)، فعرف زيد ﷺ سيف رسول الله ﷺ، فصاح برجال الحملة، فاجتمعوا، فأمرهم بأن يردوا على القوم كل ما أخذوا منهم قائلًا: هذا سيف رسول الله ﷺ، فأطاع الناس الأمر فردوا على القوم كل ما أخذوا منهم من غنائم وسبايا وأطلقوا سراح الأسرى الذين لم يُعرف عددهم.

قدومهم على الرسول ﷺ وشعر أبي جعال:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَإِذَا أُخِثَ حَسَّانَ بْنُ مِلَّةَ، وَهِيَ امْرَأَةٌ أَبِي وَبَرِّ بْنِ عَدِيِّ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ الضَّبِّبِ فِي الْأَسَارَى، فَقَالَ لَهُ زَيْدٌ: خُذْهَا، وَأَخَذَتْ بِحَقْوِيهِ (بخصريه)، فَقَالَتْ أُمُّ الْفَزَرِ الضُّلَيْعِيَّةُ: انْتَطَلِقُونَ بِنَاتِكُمْ وَتَذَرُونَ أُمَّهَاتِكُمْ؟ فَقَالَ أَحَدُ بَنِي الْحَصِيبِ: إِنَّمَا بَنُو الضَّبِّبِ وَسَحَرُ أَلْسِنَتِهِمْ سَائِرِ الْيَوْمِ، فَسَمِعَهَا بَعْضُ الْجَيْشِ، فَأَخْبَرَ بِهَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ (رضي الله عنه)، فَأَمَرَ بِأُخْتِ حَسَّانَ فَفُكَّتْ بِدَاها مِنْ حَقْوِيهِ، وَقَالَ لَهَا: اجْلِسِي مَعَ بَنَاتِ عَمِّكَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ فِيكُمْ حُكْمَهُ، فَرَجَعُوا، وَهَمَّى الْجَيْشُ أَنْ يَهْبِطُوا إِلَى وَادِيهِمُ الَّذِي جَاؤُوا مِنْهُ، فَأَمْسَوْا فِي أَهْلِيهِمْ وَاسْتَعْتَمُوا دَوْدَا (ما بين الثلاث إلى العشر من الإبل). وَاسْتَعْتَمُوا دَوْدَا: انظروه إلى عتمة من الليل لِسُوَيْدِ بْنِ زَيْدٍ، فَلَمَّا شَرِبُوا عَمَّتَهُمْ (لبنهم الذي انظروه إلى ذلك الوقت) رَكِبُوا إِلَى رِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ، وَكَانَ مِمَّنْ رَكِبَ إِلَى رِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ تِلْكَ اللَّيْلَةَ أَبُو زَيْدٍ بْنُ عَمْرٍو، وَأَبُو شِئَاسِ بْنِ عَمْرٍو، وَسُوَيْدُ بْنُ زَيْدٍ، وَبَعَجَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَبَرْدَعُ بْنُ زَيْدٍ، وَتَعْلَبَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَمُحَرَّبَةُ بْنُ عَدِيِّ وَأُثَيْفُ بْنُ مِلَّةَ، وَحَسَّانُ بْنُ مِلَّةَ، حَتَّى صَبَحُوا رِفَاعَةَ بْنَ زَيْدٍ بِكَرَاعِ رَبَّةٍ يَظْهَرُ الْحَرَّةَ، عَلَى بَنِي هُنَالِكَ مِنْ حَرَّةٍ كَثِيرَةٍ، فَقَالَ لَهُ حَسَّانُ بْنُ مِلَّةَ: إِنَّكَ جَالِسٌ تَحْلُبُ الْمُعْزَى وَنِسَاءَ جَذَامِ أُسَارَى، قَدْ عَرَّهَا كِتَابُكَ الَّذِي جِئْتَ بِهِ، فَدَعَا رِفَاعَةُ بْنَ زَيْدٍ بِجَمَلٍ لَهُ، فَجَعَلَ يَشُدُّ عَلَيْهِ رَحْلَهُ وَهُوَ يَقُولُ:

هَلْ أَنْتَ حَيٌّ أَوْ تُنَادِي حَيًّا

ثُمَّ عَدَا وَهُمْ مَعَهُ بِأُمَيَّةَ بْنِ صَفَارَةَ أَخِي الْحَصِيبِيِّ الْمَقْتُولِ مُبَكِّرِينَ مِنْ ظَهْرِ الْحَرَّةِ، فَسَارُوا إِلَى جَوْفِ الْمَدِينَةِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، فَلَمَّا دَخَلُوا الْمَدِينَةَ، وَانْتَهَوْا إِلَى الْمَسْجِدِ نَظَرُ إِلَيْهِمْ رَجُلٌ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَ: لَا تُنِيخُوا إِلَيْكُمْ، فَتَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ، فَتَرَلُّوا عَنْهُمْ وَهُمْ قِيَامٌ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَأَاهُمْ الْآخَ (أشار) إِلَيْهِمْ بِيَدِهِ: أَنْ تَعَالَوْا مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ، فَلَمَّا اسْتَفْتَحَ رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ الْمَنْطِقَ، قَامَ رَجُلٌ مِنَ النَّاسِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ

الله ﷺ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ سَحَرَةٌ، فَرَدَدَهَا مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ: رَحِمَ اللَّهُ مَنْ لَمْ يَخْذُلْنَا (يعطنا) فِي يَوْمِهِ هَذَا إِلَّا خَيْرًا، ثُمَّ دَفَعَ رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ كِتَابَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي كَانَ كَتَبَهُ لَهُ، فَقَالَ: ذُوْنكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدِيمًا كِتَابُهُ، حَدِيثًا غَدْرُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَقْرَأُ يَا غُلَامُ وَأَعْلِنُ؛ فَلَمَّا قَرَأَ كِتَابَهُ اسْتَحْبَرَهُ فَأَخْبَرُوهُمْ الْحَبْرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ أَصْنَعُ بِالْقَتْلِ؟» (ثَلَاثَ مَرَّاتٍ)، فَقَالَ رِفَاعَةُ: أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْلَمُ، لَا نُحَرِّمُ عَلَيْكَ حَلَالًا، وَلَا نَحْلُلُ لَكَ حَرَامًا، فَقَالَ أَبُو زَيْدٍ بْنُ عَمْرٍو: أَطْلُقْ لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ كَانَ حَيًّا، وَمَنْ قُتِلَ فَهُوَ تَحْتَ قَدَمِي هَذِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَدَقَ أَبُو زَيْدٍ، ازْكَبْ مَعَهُمْ يَا عَلِيٌّ»، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: إِنَّ زَيْدًا لَنْ يُطِيعَنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَخُذْ سِنِّي هَذَا»، فَأَعْطَاهُ سِنْفَهُ، فَقَالَ عَلِيٌّ: لَيْسَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ رَاحِلَةٌ أَرْكَبُهَا، فَحَمَلُوهُ عَلَى بَعِيرٍ لِثَعْلَبَةَ بْنِ عَمْرٍو، يُقَالُ لَهُ: مِكْحَالٌ، فَخَرَجُوا، فَإِذَا رَسُولُ لَزِيدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ عَلَى نَاقَةٍ مِنْ إِبِلِ أَبِي وَبَرٍ يُقَالُ لَهَا: الشَّمْرُ، فَأَنْزَلُوهُ عَنْهَا، فَقَالَ: يَا عَلِيٌّ، مَا شَأْنِي؟ فَقَالَ: مَا هُمْ، عَرَفُوهُ فَأَخَذُوهُ، ثُمَّ سَارُوا فَلَقُوا الْجَيْشَ بِقَيْعَاءِ الْفُحْلَتَيْنِ، فَأَخَذُوا مَا فِي أَيْدِيهِمْ، حَتَّى كَانُوا يَنْزِعُونَ لَيْدَ الْمَرَأَةِ مِنْ تَحْتِ الرَّحْلِ، فَقَالَ أَبُو جَعَالٍ حِينَ فَرَعُوا مِنْ شَأْنِهِمْ:

وَعَاذِلِي وَلَمْ تَعْدِلْ بِطَبِّ	وَلَوْلَا نَحْنُ حُشٌّ بِهَا السَّعِيرُ ^(١)
تُدَافِعُ فِي الْأَسَارَى بِابْنَيْهَا	وَلَا يُرْجَى لَهَا عِتْقٌ يَسِيرُ
وَلَوْ وُكِلَتْ إِلَى عَوْصٍ وَأَوْسٍ	لَحَارَ بِهَا عَنِ الْعِتْقِ الْأُمُورُ ^(٢)
وَلَوْ شَهِدَتْ رَكَائِسًا بِمَضِرٍ	تُحَاذِرُ أَنْ يُعْلَلَ بِهَا الْمَسِيرُ ^(٣)
وَرَدْنَا مَاءً يَثْرِبُ عَنْ حِفَاطٍ	لِرُبْعٍ إِنَّهُ قَرَبَ ضَرِيرُ ^(٤)
بِكُلِّ مُجَرَّبٍ كَالسَّيْدِ نَهْدٍ	عَلَى أَقْتَادٍ نَاجِيَةٍ صَبُورُ ^(٥)
فَدَى لَأَبِي سُلَيْمَى كُلُّ جَيْشٍ	بِثَرِبٍ إِذْ تَنَاطَحَتِ النُّحُورُ ^(٦)
غَدَاةَ تَرَى الْمُجَرَّبَ مُسْتَكِينًا	خِلَافَ الْقَوْمِ هَامِتُهُ تَلُورُ

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: قَوْلُهُ «وَلَا يُرْجَى لَهَا عِتْقٌ يَسِيرُ»: وَقَوْلُهُ «عَنِ الْعِتْقِ الْأُمُورُ» عَنْ غَيْرِ ابْنِ إِسْحَاقَ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦١٤-٦١٦.]

(١) يطب: برفق. حش: أوقد.

(٢) حار: رجع.

(٣) بعل: يكرر.

(٤) الحفظ: الغضب. الربع: أن ترد الإبل الماء لأربعة أيام. القرب: السير في طلب الماء. ضرير: مضر.

(٥) السيد: الذئب. النهدي: الغليظ. الأقتاد: أدوات الرحل. الناجية: السريعة. صبور: صابرة، وتروى «ضبور» والضبور: الموثقة الخلق.

(٦) النحور: الصدور.

وقال الواقدي: فرجع القوم ونهاهم زيد ﷺ أن يهبطوا وادبهم الذي جاؤوا منه، فأمسوا في أهلهم، وهم في رصد لزيد ﷺ وأصحابه، فاستمعوا حتى نام أصحاب زيد بن حارثة ﷺ، فلما هداؤا وتاموا ركبوا إلى رفاعه بن زيد - وكان في الركب في تلك الليلة أبو زيد بن عمرو، وأبو أسماء بن عمرو، وسويد بن زيد، وأخوه وبرذع بن زيد، وتعلبة بن عدي - حتى صبحوا رفاعه بكراع رؤية بحرة ليلى (لبنى مرة بن عوف بن سعد بن غطفان، يطوها الحاج الشامي في طريقه إلى المدينة. وفاء الوفا ٢/ ٢٨٨)، فقال حبان (أي: قال لرفاعة بن زيد): إنك لجالس تحلب المعزى ونساء جذام أسارى، فأخبره الخبر فدخل معهم حتى قدموا على النبي ﷺ المدينة - ساروا ثلاثاً - فابتدأهم رفاعه فدفع إلى النبي ﷺ كتابه الذي كتب معه، فلما قرأ كتابه استخبرهم فأخبروه بما صنع زيد بن حارثة ﷺ، فقال: «كيف أضنع بالقتلى؟» فقال رفاعه: يا رسول الله، أنت أعلم، لا تحرم علينا حلالاً، ولا تحل لنا حراماً، قال أبو زيد (أي: أبو زيد بن عمرو): أطلق لنا يا رسول الله من كان حياً، ومن قتل فهو تحت قدمي هاتين، فقال النبي ﷺ: «صدق أبو زيد»، قال القوم: فابعث معنا يا رسول الله رجلاً إلى زيد بن حارثة، يحل بيننا وبين حرمنا وأموالنا، فقال النبي ﷺ: «انطلق معهم يا علي»، فقال علي ﷺ: يا رسول الله، لا يطيعني زيد، فقال رسول الله ﷺ: «هذا سيفي فخذهُ!»، فأخذه فقال: ليس معي بغير أركبه، فقال بعض القوم: هذا بغير، فركب بغير أحدهم وخرج معهم حتى لقوا رافع بن مكيت ﷺ بشير زيد بن حارثة ﷺ على ناقه من إبل القوم، فردّها علي ﷺ على القوم، ورجع رافع بن مكيت ﷺ مع علي ﷺ رديفاً حتى لقوا زيد بن حارثة ﷺ بالفحلتين (بين المدينة وذى المروة، كما قال ابن سعد. الطبقات ٢/ ٦٤) فلقية علي ﷺ وقال: إن رسول الله ﷺ يأمرُك أن تردّ على هؤلاء القوم ما كان بيدك من أسير أو سبي أو مال، فقال زيد: علامة من رسول الله ﷺ! فقال علي ﷺ: هذا سيفه، فعرف زيد ﷺ السيف فنزل فصاح بالناس، فاجتمعوا، فقال: «من كان بيده شيء من سبي أو مال فليرده، فهذا رسول رسول الله ﷺ، فردّ إلى الناس كل ما أخذ منهم، حتى إن كانوا ليأخذون المرأة من تحت فخذ الرجل. حدّثني أسامة بن زيد بن أسلم، عن يسر بن محجن الديلي عن أبيه قال: كنت في تلك السرية، فصار لكل رجل سبعة أبعة وسبعون شاة، ويصير له من السبي المرأة والمرأتان، فوطؤوا بالملك بعد الاستبراء، حتى ردّ رسول الله ﷺ ذلك كله إلى أهله، وكان قد فرق وباع منه.

مصادر ومراجع للدراسة:

أ - كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢/٦١٢-٦١٦، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/٥٥٥-٥٦٠، الطبقات لابن سعد (٢٣٠هـ) ٢/٨٤-٨٥، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/٨٤، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/٤١٤-٤١٦، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/٣٥٤، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/٢٤٢، إمتاع الأسباع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/٢٦٨، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/١٤٠-١٤٥.

ب - كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية لرزق الله ٤٧٢.

ج - كتب الغزوات والسرايا: صالح الحديبية لباشميل ٥٠-٥٥، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ٩٣-٩٤، فقه السرايا للعيساوي ١٣٨ + ١٤٨-١٤٩، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٧١-٩٣.

[illegible]

أطلس السيرة لأبي خليل ص ١٥٠.

وينظر خرائط سرية محمد بن مسلمة عليه السلام إلى نجد.